السلف ومحاسبة النفس

محمد رياض الهندي

محاسبة النفس هي: حبس الأنفاس، وضبط الحواس، ورعاية الأوقات، وإيثار المهمات.

وأما محاسبة النفس في الإسلام، فهي مواجهة المسلم نفسه ومحاسبتها كل يوم عما عملته من الطاعات والحسنات، أو اقترفته من المعاصي والسيئات، فإن رجحت كفة الطاعات على المعاصي، والحسنات على السيئات؛ فعلى المحاسب أن يشكر الله تعالى، وإن رجحت المعاصي؛ فعليه أن يؤدب نفسه بالتأنيب والتقريع على شذوذها وانحرافها عن طاعة الله.

السلفية

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أن يميز العبد بين ماله وما عليه؛ فيستصحب ماله، ويؤدي ما عليه؛ لأنه مسافر من لا يعود».

قد وردت آيات كثيرة وأحاديث تدل على أن محاسبة النفس لها أهمية كبرى في الشريعة الإسلامية:

أما في القرآن؛ فقال عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨].

قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس».

وقال تعالى أيضا: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ وَنَعۡلَمُ مَا تُوَسۡوِسُ بِهِۦ نَفۡسُهُۥۖ وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦ إِذۡ يَتَلَقَّى ٱلۡمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلۡيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٞ ١٧ مَّا يَلۡفِظُ مِن قَوۡلٍ إِلَّا لَدَيۡهِ رَقِيبٌ عَتِيدٞ﴾ [ق: ١٦-١٨].

وقال تعالى -أيضًا-: ﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال جل وعلا: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩-١٠].

قال الحسن: «معناه: قد أفلح من زكى نفسه؛ فأصلحها، وحملها على طاعة الله».

هذه الآيات كلها تدل على أن الإنسان يجب عليه أن يحاسب نفسه قبل المحاسبة يوم القيامة ومواجهة أهوال المحشر، ولأجل ذلك حث النبي ﷺ الناس على محاسبة النفس.

عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء. وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[(١)].

ومما يجدر ذكره: أن السلف الصالح كانوا يحاسبون أنفسهم محاسبة مستمرة: فها هوا أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لما رأى طائرًا يطير من شجرة إلى أخرى، فتأمل وقال: «طوبى لك يا طير تقع على الشجر، وتأكل، ثم تطير، وليس عليك حساب ولا عذاب، يا ليتني كنت مثلك، والله لوددت أن الله خلقني شجرة إلى جانب الطريق، فمر بي بعير فأخذني، فأدخلني فاه، فلاكني ثم ازدردني، ثم أخرجني بعرًا ولم أك بشرًا»[(٢)].

وها هو عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يخاطب نفسه قائلًا: «أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله أو ليعذبنك!»[(٣)].

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ارتحلت الدنيا مدبرة، وارتحلت الآخرة مقبلة، ولكل واحد منهما بنون، فكونوا من أبناء الآخرة، ولا تكونوا من أبناء الدنيا؛ فإن اليوم عمل ولا حساب وغدًا حساب ولا عمل»[(٤)].

فهؤلاء هم سلف الأمة حاسبوا أنفسهم، وحثوا على ذلك غيرهم: ترغيبًا وتشجيعًا وتنبيهًا؛ فلا بد أن

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) أخرجه هناد في «الزهد» (٤٤٩ و٧٨٦-٧٨٨)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ٥٢).

(٣) أخرجه مالك في «الموطأ» (١٨٢٤).

(٤) أخرجه البخاري (٦٠٨٠).



نقتدي بهم، ونهتدي بهديهم، لأن الناس يحتاجون إلى محاسبة النفس أكثر حاجتهم إلى الطعام والشراب.

ودونك بعض النقاط المهمة محاسبة النفس وبيان الحاجة إليها:

أولاً: يجب الامتثال لأمر الله تعالى، حيث قال: ﴿وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾.

ثانيًا: لا يمكن إصلاح القلب إلا بمحاسبة النفس.

ثالثًا: بالمحاسبة يعرف عيوب النفس، كما قال ابن الجوزي: «من لم يطلع على عيوب نفسه، لم يمكنه إزالتها».

رابعًا: المحاسبة تبعد عن الغفلة وعن الاستمرار في المعاصي والذنوب.

خامسًا: بالمحاسبة يتعرف العبد على حق الله تعالى، ومن لم يعرف حق الله تعالى عليه؛ فإن عبادته قليلة المنفعة جدًا.

سادسًا: بمحاسبة النفس ينجو المسلم من عذاب الله سواءً في الدنيا أو في القبر أو في الآخرة.

روى الحافظ ابن عساكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

«أن أحمد بن عمار الأسدي قال: خرجنا مع أحد المعلمين الصالحين في جنازة، ومعه جماعة من أصحابه؛ فرأى في طريقه كلابًا مجتمعة بعضها يلعب مع بعض، ويتمرغ عليه، ويلحسه، فالتفت إلى أصحابه؛ فقال: انظروا إلى هذه الكلاب ما أحسن أخلاق بعضها مع بعض.

قال ثم عدنا من الجنازة، وقد طرحت جيفة، وتلك الكلاب مجتمعة عليها، وهي تهارش بعضها البعض، ويخطف هذا من هذا، ويعوي عليه، وهي تتقاتل على الجيفة.

فالتفت المعلم إلى أصحابه؛ فقال لهم: هل رأيتم يا أصحابي متى لم تكن الدنيا بينكم؛ فأنتم إخوان، ومتى ما وقعت الدنيا بينكم تهارشتم عليها تهارش الكلاب على الجيفة».

«مختصر تاريخ دمشق» (٣/١٩٠).

السلفية